تراتيل الرسوم الجدارية

شريف مصطفى

الكتاب: تراتيل الرسوم الجدارية (قصص قصيرة)

المؤلف : شريف مصطفى

الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠١٥

رقم الإيداع : ١٥٧٩ / ٢٠١٥

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 – 977 – 493 – 203 – 8

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى – المقطم – القاهرة

ت فاكس ٢٧٢٧٠٠٤ (٠٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : ياسمين عكاشة



تراتيل الرسوم الجدارية

قصص قصيرة

شريف مصطفى

الإهــداء

إلى روح أبي وأمي رحمهما الله

إلى حبيبتي وزوجتي أسماء

شريف مصطفى

مفتتح

كُتِبَ عليك أن تحيا غريب الروح

تسير وراء حرفِ الجرِّ بين مدائن الممنوع والمسموح

تحاول أن تمدَّ الحرفَ جِسرًا بين وادي الحلم

و القلق الذي يحبو على نار الهوى المذبوح

توصف للمواجيع المصابيح

و تعطي للمجاريح المفاتيح

و أنت التائهُ الدوَّارُ عن دارٍ مفتحة

على أبوابها تبكي

و تحكي للشبابيك القديمة عن جدارِ السجن

أو خيلِ الهوى المجروح

و تبقى تائهًا لا تستريح ولا تُريح

من قصيدة (قراءة في سفر تكوين شاعر)

للشاعر د. إبراهيم محمد علي

فصول من كتاب الموتى

▪ تقرير

أسفل تلك الرمال العظمى في تلك المدينة التي اكتشفت أسفلها وكانت تُسمَّى قديمًا "القاهرة".. وكانت تقوم على ضفاف ما سُمِّي بـ"نهر النيل".. وجد كتاب الموتى بجوار جسدٍ متقنفذٍ في جبهته ثقبٌ مستقرٌ به جسمٌ معدنيٌ مدبَّب.. ويرجَّح أنه لجسدِ صاحبِ الكتاب، ولم نجد إلا بعضًا من فصوله التي نوردها في التقرير التالي.

« المقرر

- الفصل الثالث :

ما زال غبار الفُسحة عالقًا بأنوفهم.. بقايا الطعمية محشورة بين أسنانهم. دخل المدرس محتضنًا حقيبته السوداء المكتظة.. كتب فوق السبورة: (تاريخ).. تثاقلت جفونهم.. شكشكتهم بلوراتُ الملحِ المتبقية من العَرَقِ على أجسادهم الناحلة..همُّهم قائلاً وعينه تتابع حركة المدرس :

- كم بقي من الوقت ؟

- تحمل، بقي الكثير.

تحرَّك المدرس بين الصفوف، قائلاً :

- احفظوا التاريخ جيدًا حتى تنجحوا وأتخلص من وجوهكم العكرة.

أصغى الجميع انتظارًا لصوت الجرس الذي سيأتيهم بين اللحظة والأخرى.

- الفصل الثاني والخمسون :

خبر : (خطاب سياسي هام)....
صرخوا (زعيم.. يا.. يعيش.. يا.. يعيش..)....
لملمهم.. تبسم.. حدَّق في عيونهم..

- إننا بلد الأزهر الشريف ولن نقبل أن يُمسّ إسلامنا بشيء، ولن يملي علينا أحدٌ مهما كان ما يجب أن نفعله، ولا للإرهاب.

تصفيق... ينحني.. يوزِّع قبلاته.. يسيرون خلفه..

مال أحدهم عليه هامسًا :

- وصل المبلغ يا مولاي.

انتفخ صدره.. هرول أحدهم تجاهه قائلاً :

- تنتظرك يا مولاي.

تورمت فخذاه.. انطلق ناحيته ثالث :

- الرئيس الأكبر سيجري مكالمة معك بعد نصف ساعة لمناقشة بعض الأمور الهامة.

زاغت عيناه.. هرول.. قرفص ناظرًا إلى الهاتف....

(هامش: الأزهر= كلُّ أبيض صافٍ مُشْرِق
الإرهاب = الإسلام

المقرر)

- الفصل التسعون :

داعبهما النيل بلونه المسرج بمصابيح النيون.. بدت أحلامهما في غلالة بنفسجية.. غُيبتْ أصابعها بين أصابعه.. قال :

- أحبك

- أحبك

- زوجيني نفسك.

- زوجتك نفسي.

تجردا من ملابسهما.. سعرت العيون.. تلاقيا.. فغرت الأفواه.. اندمجا في تكوين هلامي.. صفق الناظرون.. علا صوت الحشد :

- برافو.. برافو..

- الفصل الثاني بعد الألفين :

صرخت الآلاف الهائجة :

- (مصر.. مصر..).

يصرخ المذيع :

- إنه ليوم عظيم، فلتصعدي يا مصر إلى قمة العالم، ها هُمْ أبطالنا يتوجون لحظة انتصارهم وعبورهم الثاني.

تختلط الأصوات المدوية مع أغنية (المصريين أهمه) يصعدون وسط الحشود؛ يصافحهم.. يسلِّمهم الكأس.. يرفعونه عاليًا... تعلو الهتافات : (مصر.. مصر..)...

تلونت الصحف بألوانها الزاهية: (مصر تعتلي عرش الكرة في العالم)، وفي ركنٍ منزوٍ كُتِبَ خبرٌ صغيرٌ: (إعلان القدس عاصمة رسمية لإسرائيل)!.

- **مختتم :**

بجوار الجسد المتقنفذ؛ وجدتُ قصاصة ورق كُتب فيها:
(انسحبوا من كلماتي.. انغرسوا في طيات النسيان.. اقتلوني كما شئتم.........)

• • • • •

الشيخ منسي

قحط المطر.. ارتفع صوت الشيخ منسي عند رمادية الفجر :

- اللهم أغثنا.. اللهم أغثنا.. اللهم أغثنا.

فتحت عينيها.. احدودب الظهر بدا كعودِ ذُرةٍ متهالك.. حاولتْ أن تنام علَّه حلم كل يوم.. عادت لتفتحمها، ما زال يترصدها. همست بصوتٍ مرتجف:

- أتيتني ؟

نفضت جلبابها من تراب المنامة.. تدانيا.. لمحت عينيه رماديتين كالفجر.. غائصتين في الجمجمة كغريق يحاول الخروج.. انساب الكفُّ المعروق بين جدائل الشعر الأبيض..

- قالوا إنك مِتَّ.

- ما زال عزرائيل يلحُّ عليَّ.

تمطَّتْ الشفاه الجافة فوق الخدين.. علا في أذنيهما صوت الشيخ منسي.. قالت :

- إنهم يدعون للمطر.

- عندما كان الأمس كان الله يدغدغ أرضنا بالمطر.

بزغ ضوءٌ متراقصٌ من فتيل المصباح.. تحفرت الأخاديد المظلمة. حاولت الشفاه أن تنفرج.. إحساس بسخونة الجسدين.. يهمس لها :

- للكونِ إلهٌ يرسل له مخلِّصه.

- هل سيأتي ؟

- سيُبعث منك.

- حصانه ؟

- أسود كالليل.

يتهدج صوت الشيخ منسي :

- اللهم أغثنا بمطرك.

يصارع الضوء المتراقص السكون.. تصرُّ المنديل، ثمة دمعتان..

- أمصرٌّ على الرحيل ؟

- عندما يأتيكِ سمِّهِ إسرافيل.

- إني أسألك أنتَ: أسترحل ؟

- خلقتُ لأسير.

نُفخت.......................................

الليل في محاولة البقاء الأبدية.. يحاول الطبيب أن يفهم..

- هل قُتلت ؟

- قتلها مَنْ في بطنها ؟!

- كانت ضعيفة فحملته ضعيفًا، فمات فتعفن، فتسمم دمها فماتت.

ينسحب الضوء من الفتيل المهترّئ.. ترتفع القبة فوق عشتها..

- مدد يا صاحبة السر.

ينحبس صوت الشيخ منسي.. يرفع يديه للسماء.. يحاول...........

• • • • •

الحقيبة

(ستحمل أنشودتك وترحل.. ولكن حتمًا ستعود.....)

أشعر بالبرد يقتحمني.. تتصاعد الأبخرة متحررة من كوب الشاي.. أحاول أن أرى ملامح الطريق التي اختفت في سُترة الليل.. يحتويني القطار حاملني بعيدًا عن مدينتي.

- هناك سوف تستطيع أن تبني مستقبلك.
- على عيني رحيلك يا ولدي.

لملمتُ دموع أمي من ذاكرتي.. أخرجتُ من حقيبة كُتبي ديوانًا غيَّبني بين دفتيه..الطريق أطول مما كنتُ أتخيل.. اقتحمتْ النافذة أضواء القاهرة.. حقائب تهبط، ينهضون.. يهمهمون.. يتداخلون.. يتخبطون.. يتشاجرون.. دقدقة قلبي المتعب تعلو.. حلم العلو والارتقاء.. أنكبس بين الأجساد في الممر الضيق.. دفعني أحدهم في ظهري :
- بسرعة يا أستاذ.

الرصيف، رؤوس سوداء تتماوج.. مدفوعًا محشورًا بين الأجساد.. تذكرتُ حقيبة كُتبي.. نسيتُها في

القطار.. تسمَّرتُ مكاني قليلاً.. حاولتُ العودة مخترقًا السيل البشري.. دفعني أحدهم، كدتُ أن أسقط :

- امشي يا أستاذ.

- دعوني أمرُّ، دعوني أعود.

تحرَّك القطار إلى المخزن.. أحاول أن أستدير مدفوعًا أمام الأجساد.. لفظتني محطة رمسيس من فمِّها المتسع.. ملأتني رغبة البصق عليها؛ ففعلتُ...

اقتحمني سيلٌ بشريٌّ آخر... مندفعًا لا أستطيع أن أقاوم.

• • • • •

النافـذة

شخابيط أقلام الرصاص هلامية التفاسير تبسط تعرجاتها على الحائط المتساقط.. تبدو حجارته كالحة السواد.. يثقبها النملُ شاقًّا طريقه إلى الأرضية التي انمحت ملامح بلاطها..

يترنح السرير النحاسي عندما يهبط من فوقه.. تجرجر قدماه الملاءة الرمادية.. يقف خلف شيش النافذة الطالَّة على الشارع.. يتابع الأطفال.. منذ سنين وهو يحاول أن يفتح النافذة.. قالت له يومًا :

- إن جنيًّا رصد النافذة يحوطها بسلسلة طولها ألف متر.. إذا حاولت أن تفتحها سخطك قرد.
- و من أين جاء هذا الجنيِّ يا أمي ؟
- إنه يسكن الخرابة التي توجد بنهاية الشارع.

يشبُّ بقدميه يحاول أن يلمح الخرابة.. عيناه تلمعان.. انتفض مذعورًا، تراجع للخلف، اصطدم بالمنضدة.. تساقطت الكتب.. تبعثرت الأوراق.. اصطدمت قدمه اليمنى بقائم السرير النحاسي.. انساب الدم قانيًا.. تجلط فوق الأوراق المبعثرة.. تأوه.. تفجرت دمعتان.. يلعن ذلك الجنيَّ الرابضَ له كلما حاول فتح النافذة..

استجمع بعضًا من أحلامه القديمة.. غزل بصمته الطويل إحساسًا بالتمرد.. تملكته فكرة واحدة.. انتفض واقفًا أمام النافذة.. أشرطة الضوء المتسربة من بين قطع الشيش تقطع وجهه شرائح ما بين الضوء والظل.. تسارعت خطاه.. ضرب الشيش بقبضتيه.. تطايرت ضلفتاه.. اقتحمته نسمة باردة.. شقَّتْ عينيه أشعةُ الشمس.. اختلَّ توازنه.. حاول التشبث.. هوى.. ظلَّ يسبح في الهواء.. وفجأة شعر بعظمه يُسحق.. تسيل الدماء وردية على تراب الرصيف..

حاول أن يفتح عينيه تهاومت بعض الوجوه.. لامح الخرابة.. ابتسم.. أغمض عينيه.

● ● ● ● ●

الرقصة

الليل يسرج على السماء سحاباتٍ تحبل بخيوط القمر المختبئ خلفها.. تنسمات المساء تلفح وجهه ببرودة الشتاء.. يحمل بين كفيه كوب الشاي الساخن.. يلهو بخيوط البخار المتصاعدة من بين شفتيه تشكل تداوير باردة تلسع أنفه.. كان صوتُ "أم كلثوم" ينسحب إلى أذنه يتلمس الطريق إلى قلبه ليلمسه بنبضة حُبٍّ قديمة... رآهما يسيران متشابكي الأصابع.. ابتسم.. نظر إلى عينيها، غاصت بين جفونه.. نظرة كالقبلة المتعشقة الطويلة.. ضغط بيده على يدها بتحنان.. اقتربا.. تلاصق الجسدان.. يملؤهما الدفء.. يبتسمان. ابتسم وهو يراهما يختفيان خلف البنايات القديمة.

ارتشف من كوب الشاي بعضًا منه.. خيوط القمر تتسلل من خلف السحابات.. تلمس عينيه بفضيتها اللامعة.. تتشكل في عينيه عينا حبيبته.. يتعالى الخفقان... ينصت بعينيه إلى همسات السحاب.. نظر إلى مكان انحناء البنايات.. يشعر أنهما قادمان من جديد من خلف البناية.. يعودان.. يتعالى صوت نقرات دفوف.. دقات تنتظم.. ترانيم تتعالى بين النسمات

الباردة.. كان يدور.. يتلمس الهواء بقدميه.. تتصاعد الدقات بين هبات النسمات.. يزداد دورانه.. تتصاعد أبخرة كوب الشاي.. تشكل دوائر سريعة.. تتداخل الألوان بخيوط القمر.. لمحهما قادمين يشكلا دائرتين.. يطير.. يشاركهما.. تزداد دقات الدفوف.. يتصاعد البخار.. يمزق القمر ثوب السحاب.. يطل من بين القطع الممزقة.. يبتسم.. تبهره تداخلات الألوان.. يمسك بيديهما.. يدوران.. يتصاعد إلى السماء.. يقبل عينيهما.. يلسعه كوب الشاي المنسكب على قدمه.. ينتفض..

بدا الشارع خاليًا.. السحابات تلقي بعض قطرات المطر..رويدا تزداد انهمارات المطر.. يفتح ذراعيه للسماء.

• • • • •

إحساس قديم

تراودني عين حفيدي لحظة بكائه عند رحيلي.. سُحب الدخان تتكور في نسيج هلامي.. يداعبني وجهها.. كرمشات السنين المحفورة أسفل عينيها الحنونة.. شعرها الفضي.. جلدها الذي ما زال يلمع بالحياة.. أحسَّستُ بسخونة قديمة تنثر رمادها على جسدي المحني.. لفظني القطار.. ناداني سائق الحنطور :

- حنطور يا حاج

ثوبها الأبيض تطّير ذيله حركاتها المتئدة.. تنكشف ساقها، يعاودني الإحساس.. لامحتُ عينيها العسليتين ترنوان في خجل.. تدنو.. أدنو.. غيَّبتْ جسدها بين ذراعي.. مشطتْ بقايا شعري بكفِّها المعروقة.. لثمتُ شفتيها اللتين صارتا غضتين تلمعان تحت ضوء النيون.. تبسمتُ.. خللت كفي بين جدائل شعرها الفضية.. نهضتْ مسرعة إلى المطبخ؛ يملؤها خجلٌ رقيقٌ؛ قائلة :

- سأحضر لك العشاء.

احتوانا الفراش.. هممنا باستعادة الرغبة القديمة.. ألمٌ شديدٌ يعصف بظهري.. ارتميتُ بجوارها.. تطاير الفزع من عينيها.. قالت :

- ما بكَ حبيبي ؟!

- لا شيء يا حبيبتي، ألمٌ بسيط.

مسحت بكفِّها حبَّاتِ العَرَق المتكورة فوق جبيني.. قبَّلته.. أسندتُ رأسي فوق صدرها.. شعرتُ باللذة تجتاح قلبي..ارتسمتْ على خديها حُمْرة الحُبِّ القديمة..تحاضنَّا.. استسلمنا للنوم متعانقين.

• • • • •

الخروج مِن الدائرة

النظرية

كانت تلك المحاولات القديمة للخروج من الدائرة لُغْزًا.. حلم الانصهار في بوتقة الانحراف عن محيط الدائرة.

نقطة الارتكاز

صخب الفصول والمدرجات المسكونة بأشباح الأحلام الغضَّة.. نظرات عينيها مولهة بسهادِ ليالٍ طوال.. قلبي المرسوم بين صفحات كشكول محاضراتها.. تلك الخفقات تأخذني بعيدًا.. عندما لمستُ كفَّها للمرة الأولى؛ اغرورقتْ عيناي بالدموع.. هزتني أصوات الصارخين في غضب :

- تسقط العولمة.

سألتني :

- ما هي العولمة ؟

حاولتُ أن أستجمع بعضًا من فتات ذهني الممزق بينها وبين حناجر الصارخين.. أمسكتُ بيديها، انطلقتُ إلى المتجمعين.. أخرجت من جيبي ولاعة السجائر وأشعلت النار بالعلم الأمريكي.. وعندما لمحتُ قائد الحرس يثير الغبار متجهًا ناحيتنا بحُرَّاسه الغِلاظ.. سقط من يدي العلم المشتعل فوق كومة من القش.. تصاعدت تهويمات الدخان تائهة بين تعرجات الريح.. هرولتُ ممسكًا بيدها إلى الحديقة.. ضممتُها إلى صدري.. لثمتُ شفتيها... عندما مرَّ علينا ابتسم.. ارتعشنا.. استمر في مطاردته للفارين.. ما زال صدري يتوسد نهديها الغضين.. التهمت النيران أكوام القش المتلاصقة.. انزوينا بعيدًا.. انفجرنا.. ارتفعت ألسنة الدخان الأسود حتى غطَّتْ المدينة.

القُطر

ميدان الفلكي تتصاعد من بناياته رائحة البُّن المحمص.. أسير أحمل فوق كتفي حلم العلو

والارتقاء.. إنه يومي الأول في العمل.. لكزني بكفه الغليظة قائلاً :

- أنت جديد هنا ؟

- نعم

- ادخل رتب الأحذية فوق الأرفف ثم اكنس المخزن.

عندما لامستْ جبهتي سجادة الصلاة بكيتُ.. احتلتْ مرارة البداية حلقي.. بعدها صارت الاحتمالات حقائق.. وصار العلو.

المُحيط

الطبول تدقُّ من حولي.. تجلس بجواري تورق وجنتيها بأحلام الانصهار في الحياة الجديدة التي تجمعنا سويًا.. أصوات المهنئين تنزوي رويدًا رويدا.. نظرتُ للمرآة أتأمل التجاعيد التي حفرتها السنوات على وجهي.. لمحتُ نهاية الطريق.. شعيرات بيض اختطت وجودها فوق صفحة رأسي السوداء.. وكأن كل النقاط تتكرر.. عند تلك النقطة أقمتُ زاوية قائمة..

وعندما انحنيتُ دخلت إلى المربع الصغير.. مددوني في اتجاه القِبلة.. وعندما أغلقوا الباب شعرتُ للمرة الأولى أني غادرتُ الدائرة.

• • • • •

رجع الصدى

- لا تغمض عينيك انتظر.. ارفع رأسك.. بالأمس مرَّوا من هنا.. من هذا الطريق.. داست نعالهم رأس أبي عندما كان ساجدًا يدعو لك أن يعود إليك بصرك، وعندما دعت أمي أن يرتد إليك سمعك؛ قذفها أحدهم برصاصة أصابت قلبها المسكين فسقطت وارتوت تلك الشجرة التي تجلس بظلالها من دمائها..

- ....

- منذ أيام جاءت أحلام تسأل عنك، وعندما أخبرتُها أن لسانك أطبق عليه الخرس فاضت عيناها بدمعة ثم أدارت لي ظهرها الذي كان عاريًا وانطلقت بها سيارة فخمة بها شخصٌ ما مال عليها وقبَّلها، فلتنسها يا صديقي.

- ....

- أتشرب معي شاي ؟

- ....

- معذرة يا صديقي لن أستطيع أن أضع لك أكثر من نصف ملعقة من السكر.. ضغطًا للنفقات.. مد يديك لكوب الشاي.

- ....

- معذرة يا صديقي نسيت.. فأنا أدعو لك في كل صلاة بالشفاء من الشلل ففي العام الماضي عندما دهسوك بسيارتهم انخلع قلبي عليك حين قال لي الطبيب إنك لن تستطيع أن تحرك يديك.

- ....

- انظر يا صديقي إنهم في التلفاز يبحثون عن حل لتلك المشكلة.. إنه أنت.. صورتك تظهر في التلفاز يتحدثون عنك، انظر يا صديقي .

- ....

- أنظر إلى صورتك، لِمَ لا تنظر ؟ !

- ....

- آه.. كم أنا غبي.. لكم كنت أتمنى أن تكون حيًّا لترى ذلك بنفسك.

• • • • •

تراتيل الرسوم الجدارية

ترتيلة المفتتح

القاهرة بوابة الأحلام.. رمسيس الصخب اللا منتهي، التصادم والتدافع.. الآخرون الذين يبحثون عنك ليسكبوا في قلبك الأخضر تباريح وجع اللحظة الأولى للقاء تلك المعشوقة الدميمة...

كنتُ أحمل بين ضلوعي ذلك القلب المرسوم فوق جدران غرفتي في مدينتنا الصغيرة.. رسومات بلون البهجة تلونت بها الكُتب، تخضبتْ بأحبار الأقلام الزرقاء حواشي كشاكيلي الجامعية.. إنه الحلم الذي توارى كثيرًا فوق جبالٍ من الأمل في العلو والارتقاء إلى ترانيم السماء السرمدية...

وتمضي السنون، تتراكم فوق الأحلام أتربة النهار المغزولة بضوء الشمس الحارق، وتحمل بين جناحاتها الصمت.

الجدارية الأولى

تفرَّستُ في وجوه من حولي في كافتيريا محطة رمسيس.. أحدهم يقرأ الجريدة وبعيونه بلاهة الملل من تلك الأخبار التي لا تتغير كثيرًا عن تلك التي قرأها في العام الماضي.. يلوي شفتيه عندما يقلب أوراق الصحيفة باحثًا عن شيءٍ يثير اهتمامه.. وعندما يفشل؛ يطوي الجريدة في مللٍ طيات متوالية.. يلقي بها جانبًا فوق المنضدة فتصطدم بكوب الشاي فيسقط.. تتصاعد أبخرة الشاي الساخن من بنطاله، لا يأبه بلسعة الشاي.. يلعن الجريدة والحكومة والبلد والناس، وتمتم كيف سيستطيع أن يشتري بنطالاً آخر؟

الجدارية الثانية

يحمل حقيبته الثقيلة يجرجرها خلفه يرتدي نظارة غليظة العدسات، تعودنا في بلادنا أن من يلبسون هذا النوع من النظارات هم الذين يقرأون كثيرًا ، ظننتها

حقيبة تحمل بين دفتيها الكثير من الكُتب الزاخرة بفِكر القدماء والمعاصرين.. لماذا انتابني هذا الإحساس ؟ لم أدرِ، لكنها الأحاسيس التي تخترقنا دون أن نشعر بها ولا ندري لماذا هي تخترقنا.. حاول أن يرفع الحقيبة ليضعها فوق المنضدة. همَّ أحدهم أن يساعده في حملها، عاجلهما سقوطها تبعثرت محتوياتها، كانت الكثير من لِعب الأطفال.. ابتسمتُ على خيبة أملي التي أحسستُ بها.. لقد كان مندوب مبيعات للِعب الأطفال.. وأفقتُ وهو يعرض على أحدهم تلك الألعاب بعروضها المجانية.. تبسّمتُ بنظرة حملتها رياح الخيبة.

الجدارية الثالثة

مالت عليه، هامسته.. أطبق على يدها بقوة.. ألقى بعينيه في حِجر عينيها.. لامحتُ دمعة تتكور بين جفنيه.. شعرتُ بوجعٍ يتسرب إلى قلبي.. شاحت بعينيها إلى خارج النافذة هاربة من نظراته.. دارت

بوجهها فجأة إلى وجهه.. لامست عينه بنظرة صادمة.. سحبت كفها من كفه.. نهضت مسرعة.. حاولتُ أن أقرأ عينيها لكن حركتها كانت أسرع من أن أراها.. خرجت مسرعة.. عيناه معلقة في الفراغ.. وتلك الدمعتان تحاولان الخروج لتلقي على جلده قليلاً من حرارة تلك اللحظة الحزينة.. وضع رأسه بين يديه، فرك بكفيه شعره الأملس.. يقاوم دموعه...

أفقتُ على عيني وهي تسحب من وجعي قليلاً من دمعات الحُزن.

الجدارية الرابعة

في رُكنٍ بعيدٍ كان جالسًا أمامه قليل من الأوراق وحقيبة متهالكة.. ما زالت روائح الغيطان الخضراء تفوح من بين حنايا جسده الضئيل.. يحمل في عينيه بعض أحلام.. يتفحص جدران الكافتيريا.. تلك اللحظة الأولى التي تلتقي فيها بالمكان تتفحص تفاصيله بخوف وريبة وشوق.. يتابع المارين على الرصيف

حاملين بين أيديهم حقائبهم المليئة بالأسرار والحكايات، كان لديه حلمٌ أن يتحول يومًا إلى تلك المنظومة المملة من عابري الأرصفة بين بنايات القاهرة؛ تلك المدينة الجميلة في قُبحها الموغل في عمق تاريخها.. يتفحص الداخلين، يبحث عن وجهٍ ما سيطلُّ عليه.. وعندما لمحتُ سعادة اللقاء في عينيه؛ نظرتُ إلى الباب فلمحتُ أحدهم بسحنته الصعيدية القوية مبتسمًا، وكان صوت لقاء الأكف أعلى من صوت التلفاز، والأحضان كانت قوية، وسمعته بلكنته الصعيدية التي لا تتوه عني أبدًا مُرَّحِبا به ويقول له :

- أخيرًا جئت القاهرة، هنا المستقبل ليس هناك في بلدتنا الصغيرة.

اخترقتني الكلمة.. تبسمتُ.. نبض قلبي بعنف.. تذكرتُ أني هنا كانت لحظتي الأولى أيضًا.

ترتيلة الرحيل

تداخلتْ الأصوات.. تدافعت صفارات القطارات المتوالية على محطة رمسيس تحمل معها القادمين وتعود بالراحلين، آلاف من البشر وملايين الأحلام والآمال، جدران محطة رمسيس مخضبة بأحلام القادمين بلونها الأخضر الكالح وتراكمت فوقها بصقات الراحلين... كانت الساعة تدنو إلى موعد القطار.. وجدتني ما زلتُ جالسًا أتلمس الأحلام في عيون القادمين وأتوجع من خيبة أمل الراحلين..

يتحرك القطار.. أنظر إليه في بلاهة وسكينة تنتاب قلبي.. تحسَّستُ الطوق الحديدي الملفوف حول معصمي يمتد إلى الشرطي الرابط بجواري يحتسي كوب الشاي.. مضى القطار.. أرى المساحات الخضراء من حقول الطريق تختفي قليلاً عن تلك المرة الأولى التي جئتُ إلى القاهرة، لامحت القضبان الحديديه التي أنظر من خلالها.. بنايات القاهرة تشوهها تلك القضبان بسواد أعوادها الكالحة

ويهدهدني القطار.. أسند رأسي إلى جدران العربة الخاوية إلا مني والشرطي الذي يتولي مهمة تسليمي لسجن مدينتي القديمة... تنزلق من عيني دمعات قليلة وهي تقرأ فوق الجدران لعنات الراحلين.

• • • • •

شروق آخر

بعد أذان الفجر انتظروا رحيل الليل...

مضت ساعات وما زال الليل جاثمًا على سماء المدينة.. أطلَّ الناس من الشرفات يتطلعون إلى السماء وتتصاعد همهمتهم.. سأل أحدهم :

- أين الشمس ؟

قال آخر :

- أين الصباح ؟

علا صوت أحدهم :

- مَنْ يأتي بِمَنْ ؟ هل الشمس تأتي بالصباح أم الصباح يأتي بالشمس ؟

انقسم أهل المدينة بين الإجابتين.. علت الأصوات وصارت صراخًا متشنجًا..

وفجأة رحل الليل، وجاءتهم الشمسُ من مغربها.

• • • • •

الطريق إلى النهر

عاد إلى مدينته حنينًا.. تغرَّبت الوجوه.. شدَّه الشوق إلى رحلته الطفولية القديمة عندما كان يذهب إلى النهر، يسبح حالمًا بالوصول إلى الضفة الأخرى.. تزاحمت البنايات.. ذاكرته تحاول أن ترسم الطريق إلى النهر.. تلحُّ عليه تنبؤات تغييرات الشط.. تدفعه ذاكرته إلى السير في شوارع يحاول أن يتذكرها، لكن يشعر بغربة تتسلل عبر خلاياه.

مضى نهارٌ وما زالت ذاكرته تبحث له عن خارطة الوصول إلى النهر.. تشابكت البنايات فاختنق وكأنه في أنبوب ملتوية تنتهي عند بدايتها.. تسرب إليه الحزن.. حادث نفسه: هل تبدَّل الطريق أم أن ذاكرته مُحيت منها معالم الطريق ؟.

أنهكه الدوران.. قرَّر العودة.. معالم العودة تاهت.. صار مذعورًا كفأرٍ يحاول الهروب من متاهة كبيرة.. تملكه التعب.. بجوار سورٍ عالٍ جلس وأسند رأسه على السور ليرتاح قليلاً.

في الصباح التالي تناقل الناس قصة ذلك الغريب الذي وُجِد ميتًا عند سور النهر.

● ● ● ● ●

بريق الانتظار

(.. توقف التاكسي أمامها.. ركبت.. انطلق.. تحمل بين جوانحها تلك اللحظات التي تبقت من ذكرياتها الأولى....)

عند عبور الطريق أمسك بيديها للمرة الأولى.. تتكور حبات العرق على جبينهما.. كاد الدم أن يمزق شرايينهما ليختلط شوقًا.. يتركان خلفهما بوابة الجامعة.. اليوم الأخير للدراسة اليوم الذي تجرأ فيه وأمسك بيديها.. سائران متشابكا الأكفّ حتى وصلا إلى برج القاهرة..تختبئ على صدره عندما انطلق المصعد إلى أعلى...

(.. طريق صلاح سالم مزدحم بسيارات متباينة.. صوت الزحام يخترق زجاج السيارة المغلق.. تنظر للساعة.. لمحها السائق فبادرها :

- لا تقلقي يا مدام سنصل قبل الموعد بإذن الله.

منحتها كلماته قليلاً من الطمأنينة.. ألقت بعينيها خارج السيارة.. لمحتهما متشابكا الأصابع.. ما زالت السيارات تزحف............)

الشمس تميل إلى الغروب.. تفرش السماء الممتدة أمام أعينهما بحمرة الشفق الرقراقة.. تصعد إليهما أصوات شقشقات العصافير العائدة إلى أعشاشها بين أغصان الأشجار التي تفترش الأرض.. خلف غبار القاهرة تختفي الأهرامات.. تلقي بعينيها في عينيه تغسلها رعشة قلبها من تلك النظرات الحنونة.. تشابكت الأحلام كخيوط العنكبوت على جدران قلبيهما.. مضت سنين العشق الأولى بين جدران الجامعة.. واليوم ينتظران في فضاء الممكن لما يختفي خلف غبار المدينة.................

(.. ببطء تنزل السيارة في نفق العروبة.. تجرح عينيها صور العساكر المتراصين ببدلهم السوداء على الجانبين.. يتوقف طابور السيارات ليضمها النفق في عمقه....................)

يمدُّ أصابعه الرقيقة يمسح على خديها تلك الدمعة التي حملت ملح الرفض لقصة حُبِّ الجامعة الرقيقة.. يحتويها بين جفنيه.. يلفُّ قطرات دمعها بابتسامات

رقيقة.. يزرع فيها سكينة الحب والأمل والانتظار.. للمرة الأولى يقبِّل يدها.. ترتعش.. مدَّ يده بدبلة فضية يعانق بها إصبعها.. انفجرت في عينيها شلالات سعادة.. ألبسته دبلته.. نقشا عليهما اسميهما وتاريخ النظرة الأولى.. استلَّ من طرحتها دبوسًا دقيقًا.. وبحركة أسرع من دهشتها ثقب إصبعه.. تكورت قطرة دماء عليه.. ينظر إليها وبأسرع من طلبه أمسكت الدبوس وثقبت إصبعها.. اختلطت دماؤهما.. شعرا وكأنهما صارا جسدًا واحدًا بقلبين وكأن الشرايين التحمت وصار الدم مختلطًا بعروقهما.. زادت خفقات القلبين.. قال بصوتٍ مرتعش :

- سأعود.
- سأنتظرك.

(... تصعد السيارة أول كوبري المطار بسرعة متباطئة.. تلمح الطائرات الصاعدة تحمل معها ذكريات تلك اللحظة التي حملته بعيدًا عنها.. تشعر بدمه المختلط بعرقها يدغدغ قلبها المنهك من تلك

السنوات التي مضت.. يتوقف طابور السيارات الصاعد فوق الكوبري....................)

هرولت إلى غرفتها.. فتحت المظروف الأبيض.. إنه الخطاب الأول.. مع كل حرف تقرأه ينبض قلبها عشقًا واشتياقًا.. مع خطابه كان هناك ورقة صفراء تحمل رمز أحد البنوك الأجنبية في مصر.. كتب في نهاية خطابه:

- كنتِ خزانة عشقي منذ تفتحت عيوننا سويًا على الحياة، وستظلين خزانة أحلامنا التي نبنيها سويًا.. أحبك.. سأعود حبيبتي.

توالت الخطابات.. تنتظر تلك اللحظة التي يأتي فيها ليتلمس بأصابعه تلك الندبة التي صنعها خاتم أبيها حين صفعها عندما أعلنت انتظارها له ليزيح عنها ذاك الألم المتبقي من تلك الصفعة.

(.. اخترق صمتها صوت السائق :

- الحمد لله الزحمة على الكوبري كادت أن تنتهي

تنزلق السيارة ببطء لأسفل الكوبري................)

طالت فترة الانتظار، وانقطعت الأظرف البيضاء.. تفتش كل يوم في عين حسين البوَّاب عن خطابٍ ظلَّ لا يأتي، وعندما مات حسين البواب كانت تلك الفتحة الصغيرة في صندوق بريدها هي بوابتها للانتظار.. تتلمس بنظراتها جدران الشقة المنمقة في صمت الخواء.. ترعش نظرتها صورة والدها بعينيه القاسية وشاربه الكث وقد قطع جانبها شريط أسود.. وتنتقل إلى صورة أمها بنظرتها الطيبة والشريط كان أخضرَ حيث أوصتها أمها قبل أن تموت أن يكون شريطها أخضرَ.. دخلت إلى حجرتها التي تتصدرها صورته.. تقف أمام عينيه المشعتين بحنان عشقته فيه..

- سأنتظرك يا حبيبي

انزلقت من عينيها دمعتان.. وبقي على خديها خط الملح داكنًا.

في الصباح لمحت لونًا أبيضا يطل عليها من فتحة الصندوق الزجاجية.. هرولت.. كادت أن تسقط على درجات السلم.. حين فتحت الخطاب.. وقرأت فيه :

- حبيبتي وعدتك أن أعود، وها أنا عائد إليك.

كاد قلبها يتوقف عن النبض.. شعرت بدمائه تسير بين عروقها ترسم السعادة بين خلاياها.. توقفت... إلى أين هي ذاهبة الآن.. للعمل ؟.. للمنزل ؟.. فقدت إحساسها بالزمن.. كأنها عائدة الآن من لحظة وداعه............

(.. توقفت السيارة أمام بوابة الوصول..

- الحمد لله وصلنا يا مدام قبل الميعاد

- آنسة......

دهشته تلك الكلمة.. تفحص وجهها وملامحها.. أخذ النقود وبين عيونه أسئلة الفضول.. هزَّ رأسه.. انطلق.. تلونت كل وجوه القادمين بلون ملامحه وكأنه صار كل العائدين.. مئات الأسئلة تجول داخل عقلها.. آلاف النبضات العاشقات تدغدغ روحها.. شعرت بيدٍّ حانية تمتد تمسك بأصابعها.. انتفضت.. التفتت.. عانقت عينيه بلهفة السنين.. مازال الحنان يشع منهما:

- بعينيك نفس الحنان والحب

- بعينيك نفس النور والحب

تعانقا للمرة الأولى.. لفتهما خيوط الشوق الحريرية.. يمسح بأصابعه عنها دموع الانتظار.. انطلق التاكسي بهما إلى خارج المطار.. للمرة الأولى يلمحان تلك التجاعيد التي رسمتها سنوات الانتظار.. كانت أصابعهما متشابكة......)

• • • • •

الحلم و المـوت

فجر يومٍ ما...

تحاول الشمس المرور من بين ركام السحاب.. نسمات الصباح الباردة تداعب ذؤابة أنفه المحمرة.. حوافر الماشية تثير غبار التراب الندى.. تتراقص عيدان القمح المائلة إلى الاصفرار مع عزف الريح الباردة على عيدانها.. يخترق حقول القمح..

تتوالى دقات قلبه الصغير.. يتطلع إلى الأفق يخشى أن يكون قد مضى.. عندما دنا من قضبان السكة الحديد لمعت فى عينيه انعكاسة قرص الشمس الأحمر على لمعة القضيب الحديدي.. تطَّلع إلى السيمافور.. ما زال الضوء الأحمر متراقصًا.. تنفس بارتياح.. عيناه البريئتان ترنوان إلى الضوء.. جلس القرفصاء ينتظر.. وعندما تحول الضوء إلى الأخضر.. نهض بقامته الصغيرة الناحلة.. عدَّل من طاقيته.. هندم من جلبابه الصغير.. تبسم.. يخترقه صوت القرقعات المتوالية في رتابة.. وعندما مرَّ به القطار طارت طاقيته.. لم يعبأ بها.. رفع كفيه الصغيرين يلوح

للقطار.. وكأنه يودِّع حبيبه.. يرتسم فى عينيه حلم الصعود يومًا إلى القطار.. تابع مؤخرة القطار وهي تختفي عند الأفق البعيد.. يعود بين حقول القمح تملأ قلبه نشوة انتظار اللقاء القادم.

فجر اليوم التالي

يتصاعد صوت الصراخ.. أقدام الرجال تتدافع إلى طريق السكة الحديد.. يتناثر الغبار على الرؤوس.. الأطفال يرتمون في أحضان الأمهات يملأها فزع الصراخ.. تمتلئ عيون النساء ببقايا جزع.. شريط الدماء يدفن تحته لمعة القضيب الحديدي.. تتعانق الأشلاء بحواف الزلط الأسود.. طاقية ملقاة.. بقايا جلباب ممزق تنتثر يمينًا ويسارا، تقطر منها بقايا دماء.. كان أحدهم يحكى للواقفين :

- عندما وقف القطار قليلاً، وجدتُه تعلَّق بالباب، حاول أن يفتح الباب ليدخل إليه، لكن القطار تحرَّك بسرعة فحاول النزول لكنة سقط.

رمق المتكلم الاشلاء المتناثرة.. لمعت في ذاكرته تلك النظرة الأخيرة عندما استدار وهو ممسك بالباب، كان مبتسمًا وقد ملأت عينيه نشوة الارتواء.

• • • • •

فنجان نسكافيه

رطوبة ليلة صيفية خانقة.. الزحام يتلاشى رويدًا كلما أوغلت الساعة إلى الفجر.. جلس في المقهى يحتسي فنجان القهوة منتظرًا قطاره.. يحمل بين عينيه ملايين المشاهد التي عبرت على حياته في سنواته الخمسين التي مضت.. يتخافت ضجيج المتحاكون المبعثرون على مناضد المقهى.. جذبتْ انتباهه شابة صغيرة تجلس في ركن المقهى البعيد تبدو عليها علامات الخوف المختبئ.. عندما وقعت عيناها في عينيه؛ توقفت العينان لثوانٍ سرعان ما خفق قلبه بشده فأشاح بوجهه بعيدًا وقلبه مضطرب.. شعر بتلك النظرة خلقت داخله إحساسًا مختلفًا عن كل تلك الأحاسيس التي ملأت وجدانه قبلاً..

فجأة وهو يحاول أن يعيد النظر إليها رآها تتقدم ناحيته، زاد اضطرابه، خشي أن تعنِّفه على نظرته إليها، لكن سرعان ما زال الإحساس حين علت شفتيها ابتسامة رقيقة.. مدَّت يديها لتصافحه، مدَّ يديه والدهشة جعلته يحاول أن يتذكر هذا الوجه، فتّش سريعًا في ذاكرته؛ لم يتطابق وجهها مع كل من مروا

بحياته الطويلة.. علَّها بنت أحد أصدقائه القدامى قد يكون الزمن غيَّر وجهها فما عاد يتطابق مع حفريات ذاكرته للوجوه...

خرج من فوضى ذاكرته على صوتها وهي تقول :

- آسفة الوقت متأخر وأنا وحيدة هنا وشعرتُ بقليل من القلق والقطار لن يأتي قبل ساعتين، وشعرت بأنني أئنس لك، وشعرت بالأمان وأني أعرفك، فهل أجد معك التونس حتى يأتي موعد القطار.

اخترقته بعض المشاعر الجميلة القادمة من عمق ماضٍ سحيق يمتد بطول عمره الخمسيني..

- أهلاً بكِ تفضلي ابنتي، أنا سعيدٌ بكِ فأنا أيضًا وحيد وأنتظر قطاري سيأتى بعد ساعتين أيضًا علنا نسافر معًا نستأنس ببعض حتى نهاية الطريق.

- هذا يسعدني جدًا، أرجو ألا أكون تطفلتُ عليك.

- لا لا لا، تفضلي بالجلوس.

اخترقته بروعتها وظلَّتْ تحاكيه عن حياتها ويحاكيها وهي تتوغل في أحلامه، شعر بأن روحًا جديدة تدبُّ

في قلبه، اندهش من روعة تلك الأحاسيس التي مرَّت به في تلك اللحظات... تبادلت معه الضحكات والدمعات، تروي وتتناثر بقايا مشاعرها على المنضدة بينهما ويحتسيان الحكايات مع رشفات النسكافيه.. ثقبت في جدران قلبه سطوة الزمن الممتد إلى خمسين عامًا المغلف ضد الاختراق حين قرَّر أن يبقى وحيدًا بعد أن فشلت قصة حبه الأولى والأخيرة..

ينظر إلى وجهها المبتسم يشعر أن وجهها يتشكل في عمق ذاكرته يعيد رسمه على جدران روحه وكأنه يحاول أن يخلق تاريخًا لها في حياته.. اندفعت إلى عقله خفقات قلب مجهد من غياب الحب سنين طويلة.

اقتربت الساعتين على الرحيل، نظرت في ساعتها، قالت :

- الحديث معك أنساني الزمن والوقت، وشعرت معك بأمان لم أشعره في حياتي.

تبلورت بعينيه دمعتان تحاولان التوقف عند حدود العيون.. قال محاولاً أن يخبِّئ تلك الدمعات :

- معكِ شعرتُ بأنني أعيش زمنًا استثنائيًا مختلفًا.. شعرت بأن زمني قد توقف وأني عدتُ شابًّا صغيرًا.

- لنلحق القطار.. كم طول الرحلة إلى الإسكندرية ؟

ألجمت الصدمة لسانه.. ملأه الصمت.. نظرت إليه في دهشة لصمته قائلة :

- ما بك ؟

- أنا مسافر إلى أسيوط.

صمتت وملأت وجدانها الدهشة لكنها سرعان ما تلاشت، مدَّت يديها بابتسامة باهتة قائلة :

- كنت أتمنى أن نكمل الطريق سويًا، أنا سعيدة بحديثك معي وشكرًا على وقتك.

أدرات له ظهرها ورحلت إلى رصيف الإسكندرية.. اختفت من عيونها تلك النظرات التي كانت ترتسم عليها طوال الوقت..

تابع خطواتها المتسارعة إلى قطارها.. ظنَّ أنها قد تلتفت وراءها لتدعوه إلى السفر معها أو قد تسافر هي

معه.. كان يظنُّ أنها لم ترتوي منه كما يشعر هو وقد يعيدها الحنين إليه مرة أخرى.

اختفت عن عينيه حين أخذها تيار المسافرين إلى الإسكندرية.. بدا له الأمر حلمًا من أحلام اليقظة.

عندما أدار عينيه إلى المنضدة كان فنجانه ما زال ممتلئًا وفنجانها فارغا.. شعر بأن قلبه تتباطأ نبضاته حتى تكاد أن تتوقف.. ملأته مرارة حزن لم يشعرها منذ تلك اللحظة التي خسر فيها حبيبته.. شعر بأن قلبه تخفت نبضاته قليلاً وكأن الشيخوخة تعود إليه من جديد.

جلس إلى المقعد.. سمع النداء على القطار المتجه إلى أسيوط.. شعر بأن قدميه تتثاقلان إلى الأرض.. ظلَّ جالسًا ينظر إلى فنجان النسكافيه الفارغ.........

• • • • •

الضباب

قالوا له : اليوم الضباب كثيف، لا تسافر..
رغبته في السفر وشوقه إلى الإسكندرية أعمق من أن يمنعه ضباب الطريق.

الطريق ملفوفٌ بضباب كثيف وكأنه محبوس في حجرة جدرانها بيضاء.. يسير يحاول أن يتلمس الطريق في ضوء السيارة المقتول بين قبضات الضباب.. تتخالط في قلبه أحاسيس النشوى للقاء مدينته الحبيبة والخوف من الضباب.. يتنازعه الإحساسان بقسوة.. رعشته أصوات ارتطامات شديدة لا يدري من أين تأتي.. تردد هل يتوقف أم يستمر.. خاف أن يتوقف يأتيه الاصطدام من خلفه، وأن يستمر يأتيه الاصطدام من أمامه.. كانت أصوات الارتطامات تملأ المكان من حوله.. أغمض عينيه.. منتظرًا قسوة الارتطام.

• • • • •

بقايا

الليل يحاول التملص من بين قبضة الفجر.. يشعر بالنسمات تخترق رئتيه.. الشوارع خالية إلا من بعض الساهرين بحثًا عن رزقهم.. صوت الهدوء يعبث في دغدغة صامتة بحنايا قلبه.. يبحث على الكورنيش الطويل عن كرسيٍّ يرتاح عليه قليلاً.. تحتويه أحلامه المبعثرة.. بقايا انتظارات طويلة لم تأتِ.. يبحث عن أحدٍ ينتفض بين يديه ليبكي أحزانه.

رائحة الصباح تخترق رئتيه تحلم بأنها يومًا كانت منذ سنوات ترسم على الليل بهجة أحلامه.. كان هنا يرسم أحلامه.. يكتب على نسمات الصباح تقاسيم عشقه.. يبحث عن تلك المقاعد التي احتوتهما طويلاً بين تناسيم الظهيرة المورقة بالعشق المحلوم بأيامٍ قادمات تحمل بين أغصانها ورد الاشتياق لأمل الغد الجميل دومًا بين حنايا الأحلام..

قطعت تفكيراته يدٌّ امتدت إلى كتفه توقفه وصوتٌ جافٌ يقول :

- قف.

- ....

- من أنت ؟

- ....

- انطق، أعطني بطاقتك.

تمتد يداه إلى جيب بنطاله.. يبحث عن محفظته.. يفتش بين جيوبه عن هويته..

- ليست معي يبدو أن محفظتي ضاعت.

- من أنت ؟

- أنا ؟؟؟

- نعم.

- أشعر بأني منسيٌ بين دقّات الليل، سائرٌ بلا انتظار، واقفٌ على حافة الحزن ألوك بين شدقي مرارة الضياع.

- مجنون آخر.

- مهلاً يا سيدي أنا لستُ مجنونًا، لكنى أرسم لك بالكلمات بقايا هويتي التي فقدتها منذ لحظات طويلة أو قصيرة لا يهم، لكن هويتي ضاعت.

- تبدو لي أنك رجل محترم.

- وما مقاييس الاحترام لديك يا سيدي، نعم فأنا ملبسي جميل وشكلي وسيم لكن جوفي مجرد ثوب ممزق مزقته أحلامي تناثرت عليه بقع الأحزان تلوِّن بياضه بلون الموت الكالح، فقد فقدتُ نفسي عندما ضاعت كل الأحلام على تنويعات انطلاقي على مرمى الصمت بين جُزر الحب التائهة.

- من أنت ؟
- اسمي ؟
- نعم.
- اسمي تاه وسط ركام ذاكرتي.
- من أين أنت ؟
- من حيث تضيع قلوب العابثين سيدي.
- يبدو أنك سترهقنى معك.
- لا يا سيدي يؤلمني لو أني يومًا كنت مؤلِمًا لك أنت أيضًا.
- نعم ؟!
- تألَّم الكثير مني، خطَّت أناملي بقسوة بعضًا من جروحٍ على جلود مَنْ عِشقتُ يومًا، وتساءلت

سيدي تراني هل أنا مجنون ؟ هل أنا قاسٍ إلى هذه الدرجة ؟ اكتشفتُ أنني لا أقوى أن أفهم من أنا.. هل يمكنك أن تقول لي سيدي من أنا ؟

- من أنت؟! وهل أنا أعرفك ؟

- قد أبدو لك مجهولاً لكنني أجهل نفسي أكثر من جهلك بي سيدي كنت أظنني أعلم نفسي لكنني وجدتني طلسمًا كبيرًا يحاول الخروج من دوامة المجهول، سيدي كنت أحاول أن أمدَّ يدي بجوفى فابتلعها سيدي وتاهت في زحام نفسي الكبير.

- يبدو أنك سترهقني معك، توكل على الله.

- هل اذهب يا سيدي ؟

- نعم اذهب.

- هل تدلني إلى الطريق إلى أين أذهب ؟

- ....

- كان الطريق من هنا يومًا ما لكن يبدو أني فقدت الطريق.

- ....

- سيدي يا سيدي الطيب هل تدلني على الطريق خذ بيدي.

يمد يديه إلى الفراغ.. رحل الآخر.. يحاول أن يتلمس الطريق.. كانت عيناه بيضاء بدون حدقة.. انعكست أشعة الشمس الطالة من وراء الجبل في خجل على بياض عينيه.. وجد الرصيف جلس على الأرض.. ينتظر.. شقشقت العصافير على غصون الشجر أسند رأسه على العشب.. اشتمَّ رائحة الأرض المبتلة بندى الصباح.. يحاول أن يغمض عينيه.

• • • • •

دقات على الباب المغلق

النحيب

ساكنة تلك البنايات التي تتراص بين جانبي الحارة الصغيرة.. ويشق صوت السكون نحيبٌ ينطلق من البيت الصغير القابع في الركن المنزوي من الحارة.. تقف فى الشرفة الصغيرة التي تطل على البيت المنطلق منه النحيب ترتعد.. هرولتْ.. ارتمتْ في حضن أمها التي طفقت تلهو بضفائرها القصيرة قائلة:

- لا تخافي ابنتي الحبيبة.
- أمي لماذا يبكي كل يوم، هل هو عفريت يا أمي ؟
- هو إنسان يا ابنتي، كان متزوجًا وكان سعيدًا وكان له طفل جميل، لكنه في يوم من الأيام صحا من نومه وجدهما ميتين، ومنذ هذا الزمن لا يخرج من البيت ولا يزروه أحد إلا أخته ترعى احتياجاته، وعندما يجن المساء ينتحب عليهما.
- هل شكله مخيف يا أمي؟.
- يقولون إنه استوحش من الوحدة وسكنه الشيطان فأصبح له أنياب وقرون وأصبح شكله مخيفًا، ولهذا لا يزوره أحد، فلا تقتربي من بابه.

ارتعدت.. دفنت رأسها بحجر أمها واستسلمت لمداعبتها لجدائل شعرها.

الخوف

تلهو مع أقرانها في أرضية الحارة.. اقتربوا من باب بيته وهم يرتعدون ولكن تداعب قلوبهم نشوى اللعب بالطرق على الباب والهروب وتملأ شفاهم الضحكات.. تعلو نبضات قلبها بالخوف.. تنظر إلى الباب؛ تتراءى لها من خلفه عيونه الحمراء ووجهه الأسود.. تقدم أحدهم وطرق على الباب بقوة، جاءت صرخته من خلف الباب :

- أنت يا ولد.

انتفضوا.. هرولوا.. اختبأوا في مداخل بيوتهم.. تسمرت مكانها.. شعرت أن ساقيها لا تقوى على التحرك.. جاء صوته من خلف الباب :

- لماذا لم تهربي مثلهم ؟.

اخترقها إحساس بالخوف ولكن كانت نبرات صوته هادئة تملؤها ببقايا حنان منح قلبها السكينة للحظات..

قالت بصوتٍ مرتعش :

- آسفة يا عمي شفيق الأولاد هم من طرقوا الباب.

- ما اسمك ؟

- نهير يا عمي شفيق.

- اسمك جميل يا نهير.

شعرت وكأن خدرًا سار بين خلاياها.. امتلأت روحها بالسكينة.. جلست على عتبة البيت.. وملأ قلبها ذلك الحنان الذي ذاب بين نبرات صوته.. ابتسمت وشعرت بابتسامته تخترق الباب المغلق تملأ قلبها بسعادة مرتعشة.

عندما يأتي المساء

عندما كان يأتي المساء كانت تهرول تجلس على عتبة البيت تنتظره تحكي له، يومها تبادله الابتسامات؛ وكثيرًا الضحكات.. وعندما تعود للبيت لا تأبه لتحذيرات أمها منه لو فتح الباب سيخطفها ولا تخرج مرة أخرى، وظلَّ ذلك الخوف يسيطر عليها

ولكن كان إحساسها بحنانه يدفعها إليه كل يوم.. يشاركها أحلامها وآلامها.. ويوما سألته :

- يا عمي شفيق ممكن أسالك عن اسم ابنك ؟

تهدج صوته قائلاً :

- وليد.. لكنه مات صغيرًا كنت أنتظر منه تلك اللحظة التي يكبر فيها. كنت أنتظر تلك الكلمة التي تعبق الروح بعبق الحياة.

شعرت بدموعه تنساب على خديه.. كادت أن تطرق الباب لتدعوه أن يفتح لها.. تراجعت والخوف يملأ قلبها.. تحاول أن تفهم سرَّ هذا الخوف.. تملأ عقلها تساؤلات كثيرة لكن كانت تعود إليها كرجع الصدى دون إجابة.. سمعت من خلف الباب مئات القطرات التي تنسكب فوق الأرض.. سمعت صوت رتاج الباب يتحرك.. ظنته يفتح الباب.. ارتعدت دون أن تفهم لِمَ.. بدون أن تشعر هرولت.. انطلقت إلى البيت.. ارتمت في حضن أمها وقلبها يرتعش وعقلها تتصارع فيه مئات الأسئلة.

وردة بيضاء

يطول إحساسها بالزمن.. قلبها ينتفض بين ضلوعها.. تقبض على اللفافة التي بين يديها.. اليوم حصلت على راتبها الأول.. اشترت له مجموعة من الكتب وللمرة الأولى منذ سنين طويلة ستطرق الباب ستنتظر أن يفتح لها لتمنحه هديته التي طالما حلمت كثيرًا أن تشتريها له.. حاولت أن تتغلب على خوفها الذى يطل من خلف ستائر قلبها لكن كان شوقها وفرحها بأنها جنت سنوات التعب وأنهما جنيا معًا سنوات حلمهما سويًا بعلوها وارتقائها..

اليوم لابد أن يفتح الباب... هكذا كانت تحدث نفسها دون أن تخاف.. وعندما كانت على أول الحارة رأت الجميع متجمهرين أمام بيته.. وسيارة إسعاف تقف على عتبة الباب... هرولت، ترتفع نبضات قلبها بشدة.. اخترقت الآخرين.. كان مسجيًا على المحفة.. نظرت إلى وجهه الخمري وعينيه الخضراوين.. كما كانت تراه فى أحلامها.. نظر إليها وقد باتت بسمته تتلون بخضار عينيه :

- ابنتي وصديقتي الحبيبة أنا بخير كنت أريد أن ألقاكِ في هذا اليوم من أمام الباب لا من خلفه.

أخرج يديه من أسفل الملاءة البيضاء كانت بها وردة بيضاء ناصعة مدَّ يده المرتعشة إليها :

- كنتُ أريد أن أمنحك هدية نجاحك في الحياة، لكن يبدو أن سنوات الجلوس خلف الباب جعلتني لا أقوى على مواجهة الشمس.

قبلت كفه ودموعها تبلل أصابعه.. ابتسم.. حاول أن ينصب ظهره قليلا قائلاً :

- اقتربى يا ابنتي.

مالت برأسها عليه.. قبَّل جبينها، انهار ظهره، تحرَّك به الآخرون.

انطلقت سيارة الإسعاف.. تملأ أنفها رائحة جسده المسكية.. ودموعها تبلل الوردة البيضاء..

نظرت إلى الباب المفتوح والمنزل الخاوى.. جلست فوق العتبة.. تحضن بيديها الوردة البيضاء.

• • • • •

على هامش المدينة

صباح آخر من صباحاتي المتكررة.. لمحتُ وجهها من بعيد تبتسم.. اقتربتْ مني فبدت لي كرمشات وجهها الأبيض التي حفرتها السنوات الكثيرة التي عاشتها تلك العجوز، ورغمها بدا وجهها مشرقًا بابتسامته التي تظهر المتبقي من أسنانها.. فوجئت بها تقول لي عندما جاورتني بصوتٍ باسمٍ :

- صباح الخير يا بيه.

رددتُ الصباح وشعرتُ أن قلبي امتلأ بطاقة متدفقة... نظرتُ إلى الطريق وكأني أراه للمرة الأولى، وفي قلبي نبض طفل صغير.

• • • • •

لقــاء

كان المساء يفرد أجنحة الاختباء على بيوت القاهرة.. تدثرتُ بجدران حجرتي.. مئات الخطوط المتداخلة تصنع على الجدران الصامتة حكايات الأحلام القديمة.. الضوء الباهت المتصاعد من لمبة النيون التي تئن من أطنان التراب المتراكمة عليها.. رائحة الأحزان تندفع تلون الحجرة برمادية الانتظار.. بضع قصاصات من الورق الملقاة فوق الأرض.. سجادة تتطاير من بين جدائلها مئات الشعيرات المتهرئة.. يطلُّ من بين ثقوبها بلاط الحجرة الباهت يحاول أن يتلمس قليلاً من النور.. صورة قديمة لي بابتسامة تاهت بين ذرات التراب التي تعلو الزجاج المشروخ.. كان كثيرٌ من الشعر يملأ رأسي.. ونظرة عيني تبرق من خلف الشروخ...

ألقيتُ بجسدي المنهك على الكنبة المتهالكة.. أصدرتْ أزيزها تتألم.. عمرها ممتدٌ لعشرات السنين مسافرة من مكان إلى مكان تحمل عليها أجساد من الساكنين هامش مدينتنا القديمة.. أحيانًا كنت أشتمُّ من بين ثنايا قماشها حكايات آلاف الأجساد التي عبرت من هنا..

كنت أسمع ضحكاتهم وبكاءهم وتأوهات نشوتهم لحظة الانصهار.

أتعبتنى قدماي.. مئات الخطوات أحمل همها كل يوم أجوب طرقات مدينتنا أبيع للآخرين أشياء لا يحتاجونها، لكنني أحتاج إلى تلك النقود الصغيرة التي أكسبها لأظلَّ قابعًا هنا في غرفتي الصغيرة ألوك مرارة تلك الأيام القديمة التي باتت تحمل من بسماتها ذكريات أقلِّبها في دفتر الأوراق وألبومات الصور.. قليل من تلك الشعيرات البيضاء تطلُّ من خلف شعيراتي السود الخفيفة التي تسكن جانبيّ رأسي.. أنظر لوجهي في المرأة أتلمس ملامحي من خلف الهموم المتراكمة على تلك التجاعيد الموغلة بعمق الهمِّ الساكن ذاك الماضي البعيد..

كنت أحمل في طيات قلبي بعضًا من ذاك النبض القديم، كان وجهها قائمًا في ذاكرتي، وعندما لامحت الوجه يطل من بين أطنان الهموم إلى عقلي؛ لمحتُ بريقًا قديمًا يحيا بعيني، كان القلب يخفق بشدة.. تراها

هل ستأتي تسحب من عيوني تلك الهموم القديمة لتلقيها على رصيف الحياة؟.

أحاول أن أنام قليلاً.. كلما أغمضتُ عينيَّ كانت رياح الهموم تغزوني، تحمل من تلك الذكريات البعيدة بقايا عاشق قديم.. صوتها لحظة أن قالت: أنتظرك غدًا، سكنته انحناءات عشق يتشكل على أعتاب زمن جديد.. هل ستراني ذلك العاشق القديم؛ ذلك الوجه الذي هاجرته الابتسامة منذ زمن بعيد ؟ هل سيقتل الحزن بقايا فرحة تعيد التكوين على ملامحي؟.. هل ينهزم أمام انهزام حياتي التي مضت دون هوادة تدهس بأقدامها القاسية أحلامي حلمًا تلو الأخر ؟.. أم ستخرج من بين أطنان التراب ذاك العشق القديم..

ستعود يا صديقي خائبا لا تنتظر الانصهار من جديد في تلك البوتقة القانية التي تحمل في جدرانها بقايا دماء من القلوب المتحابة...

كان الصوت يرنُّ بعقلي: سيقتلك الصمت وتظل ترسم على الجدران بقايا أحلام وستبقى حلمًا مرسومًا على جدرانك يا صديقي..

أهزُّ رأسي بعنف لأطرد تلك الأصوات.. أنهض.. يقتل عيني الأرق.. وقفتُ تحت الماء الساخن ينساب متدفقًا بخيوط ساخنة على جسدي العاري.. تملؤني دغدغات الماء بقليل من الأمل.. وقعت عيناي على البانيو المشروخ.. تنساب من بين شروخه المياه تغرق أرضية الحمام.. غسلتُ أسناني جيدًا؛ كانت لامعة.. ارتديتُ ملابسي.. لمحت ذاك الزرار الذي سقط مني.. غضبت بشدة كيف نسيت أن أحيكه بالقميص مرة أخرى.. هل تقبل أن يكون قميصي ينقصه زرار ؟.. هل عندما تراه ستدرك تلك الهموم التي أعيشها ؟.. هل ترفضني لأنه لم يكتمل صف الأزرار في قميصي ؟..

أفقت على أنه الزرار الأخير.. أداريه في داخل البنطلون.. ابتسمتُ ابتسامة ارتياح.. لمحت وجهي في المرآة تعلوه دفقه الخوف وفرحة اللقاء.. تحسستُ النقود القليلة التي بجيبي، تراها هل ستكفي بوكيه الورد والتاكسي فلابد أن أركب تاكسي كيف سأذهب لها في الأتوبيس وتلوثني رائحة العرق.. وعندما

وضعتُ جسدي في التاكسي أحضن بين يدي صحبة الورد التي ابتعتها وتخيرتها وردة وردة لها.. ناداني صوتٌ: هل ستأتي يا صديقي ؟.. نهرته: ستأتي، قالت إنها ستأتي.

كانت الشمس مخبوءة خلف سحابات داكنات تحاول المرور، لكن السحابات كانت أقوى من أشعتها الضعيفة.. نسمة هواء باردة تخترق القميص تلسعني.. أمام البوابة الكبيرة أنتظرها.. تحمل كل الوجوه المارة أمامى تقاسيم وجهها.. يعلو خفقان القلب بوتيرة متضاربة.. أشعرني أرتعش رعشة قديمة كنت قد نسيتها منذ زمن بعيد.. وعندما أحسستُ بيدٍّ رقيقةٍ تربت على كتفي من الخلف.. التفتُ.. احتضنتُ عينيها.. مورقتين بلمعة حب.. غاصت بنظرتها بين حنايا قلبي.. أحسستُ بملايين الكلمات التي كنت أحضِّرها منذ تلك اللحظة التي اتفقنا على اللقاء قد تبخرت.. لم يبقَ مني إلا الصمت.. عيناي تغوصان بعينيها تلامس نبضات قلبها.. انفلتت السحابات.. تساقط المطر.. أمسكت بيديها.. ملأتْ وجهينا ابتسامة

اللقاء.. تساقطت قطرات السعادة من بين عيوننا.. جرينا كالأطفال متعانقي الأكف نبحث عن مكان نختبئ فيه من زخات المطر...........

• • • • •



المؤلف في سطور

- شريف مصطفى محمد
- قاص وناقد مصري من مواليد ١٩٧٠م
- عضو نادي الأدب بمغاغة
- عضو لجنة تحكيم مسابقة الشيخ محمد بن خالد آل نهيان للإبداع الأدبي

- صدر له :

- تراتيل الرسوم الجدارية : قصص قصيرة.
مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٥م

- تلك الابتسامة (قيد النشر) : مجموعة قصصية.

- البريد الإلكتروني :

Sherif_1970@hotmail.com

الفهـرست



(+2) 01288890065 /(+2) 02 27270004

www.shams-group.net